التراث العربي من الرواية الشفوية
الى التدوين والتأليف

التراث العربي: من الرواية الشفوية الى التدوين والتأليف.

عبد القادر هنـــي
أستاذ محاضر بمعهد الادب العرب

1 ـ غلبة الرواية الشفوية في العصر الجاهلي:

إن معرفة الجاهليين الكتابة لم تعد اليوم مسألة خلافية بين الدراسين، بعد أن وكدت الأخبار والنقوش التي وصلتنا عن العصر الجاهلي استعمال عرب ما قبل الاسلام لها في بعض شؤون حياتهم، لكن الأمر الذي ما يزال محل اختلاف بين الباحثين هو درجة انتشار الكتابة بين هؤلاء الناس الذين كانت البداوة غالبة على حياتهم . فالدكتور عمر الدقاق يضيق من رقعة استعمالها في هذا المجتمع البدوي حتى يكاد ينفيها جملة فيقول: «لم يكن للعرب في فترة ما قبل الاسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة، فقد غلبت عليهم البداوة واستغرق حياتهم التنقل، ففشت فيهم الأمية ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبىء عما كان لهم من دور حضاري، حتى ان هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبي جزيرة العرب وشماليها حيث توجد الأحجار والصخور، على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوبا وصحاري لم تسعف سكانها العرب في ترك مياسمهم على الأرض التي عاشوا فيها أحقابا مديدة» (1).

أما المستشرق الفرنسي بلا شير فمع أنه لا ينكر استعمال العرب الكتابة في هذه الحقبة من الزمن، فإنه يقلل من شأن ذيوع التدوين بينهم فيقول: « لاشك في أن بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دوّن كتابة بعض القصائد الهامة، ولكن ذلك يعوزه الدليل، حتى ولو سلمنا بصحة وقوع ذلك، فإن التدوين لم يشمل إلا جزءا من آثار الشعراء الحضريين أما البقية فقد سارت في الصحراء عن طريق الرواية الشفوية » (2).

أما الدكتور ناصر الدين الأسد، فيذهب إلى أبعد مما ذهب إليه بلاشير في توكيده معرفة الجاهليين الكتابة واعتمادهم عليها في تدوين قسم كبير من تراثهم الشعري وأخبارهم وأنسابهم وأيامهم، فكل قبيلة من القبائل كما يقول: « كانت تجمع شعر شعرائها وحكم حكمائها وأقوال خطبائها وأخبارها ومفاخرها ومآثرها وأنسابها في كتاب»(3).

إزاء هذا التباين في الرأي حول مدى اعتماد عرب ماقبل الاسلام على الكتابة في حفظ تراثهم يتحتم علينا، تحريا للحقيقة، أن نفحص بعض الوسائل التي كان يستخدمها الجاهليون في الكتابة لنقف على طبيعتها وعلى تناسبها مع طبيعة حياتهم التي كانت تغلب عليها البداوة، فمما وصلنا من أخبار عن الأدوات التي استخدمت في الكتابة يومئذ قول طرفة يصف ناقته: (4)

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر كسبت اليماني قده لم يحرد فكلمة «قرطاس» الواردة في هذا البيت كانت تطلق في المصادر العربية القديمة على ورق البردى، وهي كلمة أجنبية وليست عربية الأصل، وكان هذا النوع من الورق يفد على العرب من خارج جزيرتهم، لأن موطن صناعته كان جنوب مصر، ومنه كان يصدر الى بقية الأقطار، لذلك يبدو لنا أن كلمة (قرطاس) المستخدمة في العربية هي تعريب لكلمة (كارتيز) التي أطلقها اليونان ثم الرومان على هذا الصنف من الورق الذي كانوا يجلبونه من جنوب مصر، يؤكد ذلك أن طرفة في بيته المتقدم يصف خد ناقته أنه (كقرطاس الشامي)، إشارة الى البلد الذي كان يستقدم منه العرب هذا الورق وهو «الشام» التي كان يجلبه الرومان إليها من مصر. يقول الدكتور عزالدين إسماعيل في هذا الموضوع: « فقد كان الرومان يستوردون هذا الورق (يعني ورق البردى) من مصر، وكانت أرض الشام إمتدادا لامبراطوريتهم، ومن الشام كانت قوافل التجارة العربية تحمله ضمن ما تحمل من أرض الشام من بضاعة » (5).

وتصادفنا في الشعر الجاهلي كثيرا كلمة (المهراق)، فقد استخدمها الحارث بن حلزة في معلقته حيث يقول (6) :

واذكروا حلف ذي المجاز وما
قدم فيه، العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدى وهل
ينقض ما في المهارق الأهواء

واستخدمها الأعشى فقال (7) :
سلادار ليلى : هل تبين فتنطق

وأنى ترد القول بيضاء سملق

وأنى ترد القول دار كأنها

لطول بلاها والتقادم مهرق

واستخدمها غير هذين من الشعراء الجاهيلين كسلامة بن جندل وشتيم بن خويلد الفزارى وسويد بن يعفر وغيرهم.

وإذا سألنا عن أصل هذه الكلمة ودلالتها، أجابنا القدماء أن أصلها فارسي معرب، و أنها كانت تطلق على ثياب من الحرير أو من القطن كانت تطلى بالصمغ ثم تصقل لتستخدم في الكتابة.

فالراجح كما يوحي أصل هذه الكلمة أن هذا الورق كان يجلب هو الآخر من خارج الجزيرة. فالأصمعي في شرحه هذه اللفظة يكشف عن الأصل الأجنبي لهذا الصنف من الورق، فهو يقول في تفسير كلمة (مهرق) : «هو فارسي معرب وكان أصله خرق حرير تصقل وتكتب فيه الأعاجم، تسمى مهر كرد، فأعربته العرب وجعلته اسما واحدا فقالوا : مهرق» (8).

ويؤكد الحارث بن حلزة الأصل الفارسي للمهارق في قوله (9) :

لمن الديار عفون بالحبس

اياتها كمارق الفرس

«فإذا قد تأكدنا من معرفة عرب الجاهلية نوعين من الورق على الأقل وهما (ورق البردى) و(المهارق)، فإن هاتين الوسيلتين من وسائل الكتابة كما تبين مما تقدم كانتا تجلبان من خارج الجزيرة العربية. و هو ما جعلنا نتوقع ألا يكون الحصول عليهما أمرا ميسورا دائما، بمعنى أن أستخدامهما سيكون ضيقا ومتصلا بالأمور ذات الشأن في حياة العرب كتسجيل العهود والمواثيق والأحلاف بين القبائل، لذلك يقول الجاحظ يتحدث عن (المهارق) : «لا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان» (10).

فتخصيص هذا اللون من الورق لتدوين الأمور الجليلة كما يستشف من نص الجاحظ، ومن بيت الحارث بن حلزة المتقدم الذي يشير فيه الى «حلف ذي المجاز» بين بكر

وتغلب، يدل فيما يدل على أنه كان عزيزا نادرا وغالي الثمن.

لكن هناك من الدارسين من يستند إلى معرفة الهند وفارس للورق الصيني ليستدل على معرفة عرب الجاهلية لهذا الصنف من الورق وانتشاره بينهم، بحكم صلتهم التجارية ببلاد الشرق الأقصى (11). وما يمكن أن يقال في هذا المجال هو أنه إذا كان الورق المصنوع بفارس عزيزا - كما قدمنا - على قرب بلاد الفرس من الجزيرة العربية مقارنة بالصين، فإننا نستبعد أن يكون الورق الصيني قد تداول بينهم تداولا واسعا. يؤيد ذلك أن الشواهد على معرفة العرب له قليلة جدا، فصاحب هذه الفكرة، وهو الدكتور ناصر الدين الأسد، لايقدم من الأدلة المقنعة مايجعلها حقيقة واقعة.

وبناء على ماتقدم فإنه من غير المتوقع أن ينقل الجاهليون تراثا ضخما في هذه المواد الكتابية التي كان توفرها رهنا بما يجلبه التجار من خارج الجزيرة، لكن ألا يمكن أن تكون للعرب مواد محلية كانوا يستخدمونها في الكتابة وتدوين معارفهم ؟

إذا عدنا إلى الشعر الجاهلي مرة اخرى فإننا نلقى فيه إشارات إلى استعمال بعض المواد المحلية في الكتابة، يقول امرؤ القيس (12)

لمن طلل أبصرتاه فشجاني
كخط الزّبور في العسيب اليماني

فكلمة «العسيب» الواردة في البيت جمعها «عسب» والمراد بها السعفة أو جريدة النخل، وكان الجاهليون يكتبون عليها فهي إذنْ من وسائل التدوين التي كانت توفرها لهم بيئتهم كما هو واضح من إشارة إمرىء القيس نفسه، فهو ينسب العسيب الذي شبه به الطلل إلى اليمن. ونجد عند غير إمرىء القيس إشارات إلى هذه المادة التي كانت متوفرة عندهم لتوفر مصدرها وهو النخيل.

وكانوا أيضا يستخدمون جلود الحيوان في كتاباتهم، ففي أشعارهم إشارات كثيرة إليها، منها هذا البيت للمرقش الأكبر يشبه فيه الآثار المتبقية من الديار بآثار كتابة على الجلد يقول (13) :

الدار وحش والرسوم كما
رقش في ظهر الأديم قلم

ونتبين من النقوش التي اكتشفها الباحثون في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية وفي اليمن خاصة أن العرب كانت تستخدم الحجر أيضا في الكتابة وتدوين الأخبار، ويؤكد ذلك ما نلقاه في أشعارهم من تشبيه الأطلال وآثار الديار التي رحل عنها أهلها بآثار الكتابة على الحجر (14).

وهناك إشارات أخرى الى معرفتهم مواد محلية أخرى غير التي ذكرناها كالخشب وعظام الحيوان التي سيستعملونها في كتابة الوحي في عهود الاسلام الأولى (15).

وإذا أمعنا النظر في هذه المواد المحلية التي استخدمها الجاهليون في الكتابة، فإننا نلاحظ من غير شك أنها وإن كانت متوفرة بكثرة في بيئتهم فإن تداولها لم يكن هينا ميسورا ناهيك عن الانتقال بها من موطن الى آخر، فلا نتصور أن تنتقل قبيلة من القبائل بالآف من الجلود أو من سعف النخل أو من القطع العظمية من موضع إلى موضع، بل يمكن أن نتصور هذه الصعوبة حتى بالنسبة إلى المستقرين منهم، لأن أخبارهم وأنسابهم وأشعارهم وأيامهم التي ستكون موضوعا للتدوين لم تكن قليلة حتى يكون حفظها جميعها كتابة في مثل هذه المواد أمرا هينا، لذلك فإنه على الرغم من إقرارنا بمعرفتهم للكتابة وأدواتها بما في ذلك الحبر والقلم والدواة، وعلى الرغم من تيقننا من استخدام الكتابة في تدوين بعض أحلافهم وعهودهم وأشعارهم، فإننا لانتصور أن يشمل التدوين معارفهم كلها، بل يمكن أن نذهب الى أبعد من ذلك فنتصور ضيق دائرة شيوع الكتابة بينهم ما دام اللجوء إليها بسبب طبيعة أداواتها وصعوبة الحصول على بعضها الآخر سيكون في الأغلب الأعم في الأمور الجليلة. ولا يقلل من قيمة هذه الملاحظة ماروي من أخبار متفرقة تدل على معرفة بعض حكمائهم وبعض شعرائهم الكتابة، فليس بين أيدينا كما يقول الدكتور شوقي ضيف: «دليل مادي على أن الجاهلين إتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم، ربما كتبوا بها بعض القطع أو بعض القصائد، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك الى إستخدامها أداة في نقل دواوينهم الى الأجيال التالية، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم (16). بل وحتى في حفظ معارفهم الأخرى جميعها.

فإذا كان الجاهليون كما بيّنا لم يتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ تراثهم، فكيف كانوا يتناقلون أشعارهم وأخبارهم وأنسابهم؟ وعبر أي قناة وصلت معارفهم الى عهود التدوين وانتشار الكتابة بين الناس؟

إزاء ضعف حركة التدوين وقلة الادوات المناسبة للكتابة وجد الجاهليون في الذاكرة

خير وسيلة لحفظ تراثهم وفي الرواية الشفوية أنسب أداة لتداوله ونشره وبهذا الصدد يقول المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير يتحدث عن الطريقة التي كان يتناقل بها الشعر الجاهلي «وخلاصة القول، فإن الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر الآثار الشعرية منذ اللحظة التي قذف فيها الشاعر وراويته تلك الآثار في خضم الجماهير» (17).

فالـرّواية الشفوية كانت تمثل بالنسبة إلى عرب الجاهلية أهم أداة لاذاعة معارفهم بمختلف ألـوانها، سواء أكانت قصصا وأمثالا أم تعلقت بأيامهم وغزواتهم وأنسابهم أم اتصلت بالعقائد والعادات التي كانت سائدة بينهم أم بالشعر الذي كان ديوانهم، أم بغير ذلك مما له علاقة بشؤون حياتهم، ولعل في الاختلاف الذي نراه في رواية بعض الأمثال وما يتصل بها من قصص في نسبة بعض الابيات والقصائد الى أكثر من شاعر أحيانا، خير بيان على طبيعة المسلك الذي وصلنا عبره تراث الجاهليين، وسنقتصر في هذا المقام على التحدث عن الـرواية الشفـوية للشعـر لنرسم من خلالها صورة واضحة لهذه القناة التي لجأ إليها الجـاهليون لاذاعة معارفهم في بيئتهم المترامية أصقاعها، ولتحقيق التواصل بين الخلف والسلف من الأجيال.

إن من يعود إلى أمهات الكتب الأدبية القديمة كطبقات فحول الشعراء، والشعر، والبيان والتبيين، والأغاني، والعقد الفرد، وغيرها من الكتب، يمكنه أن يلاحظ من خلال عرضها أشعار الجاهليين وما يقدم بين أيديها، أحيانا، من أخبار، أن هذا الشعر كان يتناقل بين أهله ـ كما ألمعنـا قبلا ـ عن طريق الرواية الشفوية، حتى ليمكن القول مع الدكتور شوقي ضيف : إن النهـر الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية التي كانت الأداة الطيعة لنشره وذيوعه (18)، ونجد في الشعر الجاهلي نفسه ما يعرفنا بهذه الوسيلة التي كان يصل بوساطتها إلى أقصى الأصقاع في الجزيرة العربية، يقول المسبب بن علس (19).

فلأهدين مع الرياح قصيدة
مني مغلغة إلى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة
في القوم بين تمثل وسماع

ويقول عميرة بن جعل نادما على هجائه قومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعدله حيلة في رده(20):

ندمت على شتم العشيرة بعدما
مضت واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع دفعا لما مضى
كما لايرد الدر في الضرع حالبه

فكأني بالشاعر ـ كما يفهم من هذه الأبيات ـ ينشد قصيدته بين جماعة أو في محفل من الناس فيتلقفونها عنه و يطيرون بها إلى مختلف أصقاع هذه البيئة الشاسعة لاذاعاتها في الناس، و شيء مثل هذا لا يمكن أن يحدث في عصر كانت علاقة أهله بالكتابة على النحو الذي بيناه إلا عن طريق الرواية الشفوية لما كان ينشد في مثل هذه المحافل ..

وتشير المصادر القديمة إلى وجود طبقة كانت تحترف رواية الشعر هي طبقة الشعراء أنفسهم فكثيرة هي الأخبار التي تتحدث عن إرتباط الشاعر الناشيء بالشاعر كبير يروي عنه شعره و يحفظه، و ما يزال كذالك حتى يلين لسانه على قول الشعر وصوغه فقد تحدث ابو الفرج في أغانيه عن طائفة من الشعراء كان يروي بعضهم عن بعضهم الاخر، و قد جعل على رأس هذه السلسلة أوسا بن حجر التميمي وعنه أخذ الشعر ورواه زهير بن أبي سلمى المزني الذي روى شعره ابنه كعب والحطيئة، وعن الحطيئة أخذ الشعر ورواه هدبة بن خشرم العذري، وعن هدبة أخذ جميل بثينة، وعن جميل روى كثير عزة (21) ويضيف ابن رشيق إلى راوية أبي الفرج أن زهيرا كان رواية لطفيل الغنوي أيضا وأن امرأ القيس كان راوية أبي دؤاد الأيادي (22).

وما يلاحظ على هؤلاء الرواة أنهم كانوا من قبائل مختلفة وهو مايسمح بالقول إن شعر الشاعر كان يتعدى ـ بفضل الرواية حدود قبيلته لينتشر بين قبائل أخرى.

وهناك أخبار غير هذه تتحدث عن رواية شعراء القبيلة الواحدة بعضهم عن بعض، فقد جاء في الشعر والشعراء أن الأعشى كان راوية لخاله المسيب بن علس، وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعد بن جؤيه الهذلي، ويذكر أيضا أن طرفة بن العبد كان يروي لخاله المتلمس ولعمه المرقش الأصغر وأن هذا كان يروي لعمه المرقش الأكبر.

وتصادفك أخبار أخرى عن رواية الشعراء الصعاليك بعضهم عن بعض على نحو مانرى عند تأبط شرا والشنفرى، أو عند أبي دؤاد الأيادي وزيد الخيل، فهذه الأخبار كلها توحي بالدور الذي نهض به الرواة الشعراء في إذاعة شعر غيرهم بين القبائل .

على أن رواية الشعر لم تكن وقفا على الشعراء الذين قلنا إنهم كانوا يتتلمذون - قبل قولهم الشعر - على شعراء اكبر منهم بل اضطلع بها أيضا أشخاص اخرون من غير الشعراء اتخذوا من رواية الشعر حرفة انقطعوا لها. فمما يروى بهذا الشأن أن رجلا اسمه (عبيد) كان «يصحب الاعشى ويروي شعره، وكان عالما بالابل (23)، ويذكر ابو الفرج للأعشى راوية آخر هو «يحي بن متى».

وإذا كانت الاخبار عن هذه الطائفة الاخيرة من الرواة قليلة فإن الذي لا يخامرنا الشك فيه هو أنه كان لهذه الفئة ايضا دور إيجابي في إذاعة شعر الشعراء ونقل كثير من الاخبار المتعلقة بالظروف التي قيلت فيها بعض القصائد.

وإلى جانب هاتين الفئتين، شارك أفراد القبائل جميعهم في الرواية الشفوية للشعر بالنظر الى ان هذا الشعر لم يكن يعبر عن نوازع أصحابه وهمومهم فحسب بل كان يسجل ايضا - وفي أغلب الأحوال - مناقب القوم وأمجادهم ومثلهم وانتصاراتهم في حروبهم كما كان يسجل مثالب اعدائهم، فهذه «تغلب» تكثر من ترديد معلقة عمرو بن كلثوم - شاعرها الاول - دون ملل فيقول فيهم شاعر من بني بكر:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا مذ كان اولهم
ياللرجال لشعر غير مشؤوم

فالمعنى المستفاد من هذين البيتين، يمكن ان يعتمد دليلا على ان القبيلة كانت تقبل كلها، احيانا، على رواية شعر الشاعر، سوى أن هذا النوع من الرواية لم يكن منحصرا في أفراد قبيلة الشاعر انما كان يتعداهم الى أفراد القبائل الأخرى، فقد وصلتنا اخبار كثيرة عن الأسواق التجارية في العصر الجاهلي التي كانت في الوقت ذاته اسواقا للخطابة والشعر، وكان يفد عليها الناس من جميع انحاء الجزيرة، فمن الطبيعي ان ينقل الوافدون على هذه الاسواق الى قبائلهم بين ما ينقلونه، ما يعن لهم من اخبار تتعلق بالخطباء والشعراء ويروون بعض ما سمعوه من شعر.

إن ما نستخلصه من كل ما تقدم أنه على الرغم مما وصلنا من أخبار تؤيد معرفة الجاهليين للكتابة واتجاههم احيانا الى تدوين عهودهم ومواثيقهم وبعض شعرهم، فإن الامر الذي لا شك فيه هو أنهم لم يتخذوا من الكتابة وسيلة لحفظ تراثهم، واذاعته بينهم، انما كانت الرواية الشفوية - للأسباب التي تقدمت - الاداة الأولى التي نهضت بتلك المهمة وفي هذا المضمار لعبت الذاكرة دورا متميزا في وصول تراثهم إلى عصور التدوين والتأليف.

2 ـ اتصال الرواية الشفوية بعد العصر الجاهلي :

إن السؤال الذي يحضرنا هنا هو، هل توقف سيل الرواية الشفوية لأخبار الجاهليين وأشعارهم بظهور الاسلام ووجد المسلمون الاول وسائل اخرى ـ أغنتهم عن الرواية الشفوية ـ لحفظ تراثهم وتراث أسلافهم في هذا الوقت المبكر من نشوء المجتمع الاسلامي؟

اذا إحتكمنا في هذا الامر الى ما بين ايدينا من مصادر قديمة فإن الملاحظة التي تلفت انتباهنا هي اهتمام المسلمين في العهود الاولى للبعثة المباركة بأخبار الجاهليين وأشعار فقد كان بعضهم، حين يجتمع بوفود بعض القبائل يسألهم عن أحوالهم في الجاهلية وعن شعرائهم وهلم جرا، فيروون لهم قدرا من ذلك، فقد جاء في طبقات ابن سعد ان جابر بن سمرة قال : «جالست رسول الله ﷺ اكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الاشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم رسول الله ﷺ (24).

وليس غريبا ان تستمر للرواية الشفوية مكانتها في هذا العصر، على الرغم مما سنلاحظه من بدء اتساع دائرة الكتابة في هذه الحقبة، فقد طرأت جملة من الظروف العصر الاسلامي في الأول استوجبت العودة الى تراث الجاهليين والعناية به فاتجاه عمرابن الخطاب رضي الله عنه إلى تدوين الدواوين خلق حاجة شديدة الى معرفة الأنساب، كما ان فهم القرآن الكريم وتفسيره كثيرا ما اقتضيا الاستعانة عليهما بالشعر الجاهلي، فمما يروى أن عمر سأل المسلمين وهو على المنبر عن تفسير قوله تعالى «أو يأخذهم على تخوف» فسكتوا ولم يعرفوا فقال شيخ من هذيل : هذه لغتنا، التخوف التنقص، فقال عمر هل تعرف العرب ذلك في أشعارها، قال : نعم، قال شاعرنا ابو كبير يصف ناقته :

تخوف الرحل منها تاكا قردا
كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم بديوانكم لاتصلوا، قالوا : وما ديواننا قال شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم» (25) من ثم نفهم كثرة استشهاد ابن عباس رضي الله تعالى عنه بالشعر الجاهلي في تفسير القرآن الكريم حتى قال عنه أبو عبيدة يصف منهجه في تفسير القرآن «إنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر» (26)

ومن جهة اخرى فإن العصبيات التي عادت الى الظهور بين القبائل لا سيما إبان حرب علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان واستمرت حتى نهاية العصر الأموي قوية عنيفة في كثير من الأحيان، أسهمت إسهاما وافرا في عودة القبائل إلى رواية أخبار الجاهلية

وأشعارها المتضمنة لمفاخرها وأمجادها ومثالب خصومها، وزاد من الاقبال على رواية هذا التراث شغف خلفاء بني أمية أنفسهم بالشعر الجاهلي وأخبار أصحابه، فمن الأخبار الكثيرة التي وصلتنا عنهم في هذا المجال ما يذكر من أنهم «ربما إختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريدا الى العراق يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه».

ومما يزيد هذه الفكرة وضوحا الأعداد الكبيرة من الرواة الذين كانت تعج بهم مجالس الخلفاء إستجابة لرغبة هؤلاء في معرفة أخبار الجاهلية وأشعارها، وقد أدى ذلك كما قال الدكتور إبراهيم عبد الرحمان إلى نشوء (طبقة من الرواة المحترفين الذين كانوا يعمدون الى إعداد أنفسهم لهذه الوظيفة أو فلنقل لهذه الحرفة التي اشتد طلب الأمويين، خلفاء وغير خلفاء، على أصحابها في مجالسهم الأدبية» (27).

وقد كان للرواية هذه المكانة ايضا عند علماء اللغة والنحو الذين كانوا يشدون الرحال ـ في القرن الثاني خاصة ـ الى الاصقاع النائية في البادية طلبا للغة الفصيحة البعيدة عن اثار العجمة واللحن التي بدأت تعرفها لغة العرب نتيجة اختلاطهم بالعناصر الاجنبية. وتلقانا في هذا المقام كثير من أسماء العلماء الذين شافهوا الأعراب وأخذوا عنهم كثيرا من اللغة والشعر والاخبار، ومن هؤلاء الخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء والأصمعي وغيرهم كثير.

وكانت الرواية الشفوية أيضا أهم أداة كانوا يتناقلون بها أحاديث الرسول ﷺ، خصوصا أنه عليه الصلاة والسلام كان ينهي ـ كما يروي ـ عن كتابة الحديث حتى لا

يضاهى بكتاب الله وغيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه. وقد برز في رواية الحديث كثير من الحفظة كان الناس يروونه عنهم كأبي هريرة وعبد الله بن عمرو، وأنس بن مالك خادم الرسول ﷺ وغيرهم من الصحابة وأهل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام. وبقي الحديث أمدا غير قصير يتناقل عن طريق الرواية الشفوية على الرغم مما يذكر من أن الرسول (ﷺ) رخص بكتابته لبعض صحابته.

على هذا النحو نلاحظ أن الرواية الشفوية بقيت متصلة بعد العصر الجاهلي وأنها إستمرت حتى أيام بني أمية ومدة من عهد بني العباس الذي نشطت فيه حركة جمع اللغة والشعر القديم نشاطا كبيرا. فمازلنا إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة نسمع عن رحيل العلماء إلى البادية لمشافهة الأعراب صنيع أبي عمرو الشيباني والجوهري صاحب الصحاح.

لكن إذا كان الأمر كذلك، فهل يعني ذلك أن حركة التدوين عند المسلمين أبطأت إلى عهد متأخر جدا؟

3 ـ حركـــة التدوين والتأليف :

مرّ معنا في غير هذا الموضع أن الجاهليين عرفوا الكتابة وأنهم دوّنوا بعض أشعارهم وبعض ما كانوا يعقدونه من عهود ومواثيق، غير أننا إنتهاينا إلى أنهم لم يتخذوا من الكتابة أداة لنقل كل معارفهم لأسباب بيناها في موضعها ولاحظنا ان الرواية الشفوية للتراث لم تنقطع بمجيء الاسلام، بل ظلت مستمرة بعد ظهوره مدة طويلة من الزمن، سوى ان ما يلفت النظر في هذا العصر هو ان الجهود لم تكن مقتصرة على الرواية الشفوية انما اتجهت ايضـا الى تدوين كثير مما كان يروى وتجميعه لحفظه من الضياع، لاسيما بعد ان توافرت دواعي الاقبال على تعلم الكتابة والقراءة، وان كانت ادوات الكتابة نفسها لم تعرف تطورا كبـيرا عما كانت عليه في العصر الجـاهـلي، الا بعد الاحتكاك الواسع بالشعوب المغلوبة والافادة من حضارتها فالقرآن الكريم نفسه كان مدونا قبل جمعه في جلود وعظام وفي عيسب النخل وغيرها من مواد الكتابة التي كانت معروفة عن الجاهليين، وبعد جمعه دون أيضا على (الرّق) وبقي الناس على تلك الصورة كما لاحظ الدكتور عز الدين اسماعيل ـ الى ان ولي الـرشيد الخلافة ونفس الأمر يمكن قوله بالنسبة الى العهود والرسائل التي كان يبعث بها الرسول (ﷺ) الى القبائل والى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام.

لكن بدائية هذه الوسائل لم تحل دون تطور حركة التدوين وإتساعها عما كانت عليه في العصر الجاهلي. فقد أقبلت جماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عنهم على كتابة القرآن الكريم عند نزوله مفرقا، وكان زيد بن ثابت اكثر هؤلاء كتابة لكثرة ملازمته الرسول عليه الصلاة والسلام، وظل القرآن مدونا على هذه الصورة حتى عهد ابي بكر الصديق الذي اقنعه عمر بن الخطاب بضرورة تدوينه مجتمعا، فانتدب لهذه المهمة زيدا بن ثابت فجمعه من صدور الحفاظ ومن الجلود والعسب والرقاق والعظام والحجارة التي كان قد كتب عليها. ويعد بعض الدارسين هذا الحدث البداية الحقيقية لحركة التدوين عند المسلمين (28). لكن ذلك لا يعني ان هذه الحركة بلغت في هذا الوقت المبكر ذروة تطورها، او انها كانت تضع بين ايدي الناس مما كان يدون النسخ الكثيرة، فزيد بن ثابت جمع القرآن في باديء الامر في مصحف واحد بقي عند ابي بكر حتى وفاته ومنه انتقل الى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم احتفظت به ابنته حفصة بعده، وظل الناس يأخذون القرآن شفاها من القراء الـذين كان لدى بعضهم نسـخ منه رتبها كل منهم ترتيبا خاصا، وقد ظهرت بين هولاء اختلافات عميقة احيانا في قراءة بعض الايات الامر الذي حرك الخليفة عثمان ـ بنصيحة

من حذيفة بن اليمان ـ الى تدارك الموقف فأناط المهمة ـ صنيع ابي بكر ـ بزيد بن ثابت ومعه ثلاثة من الصحابة هم : عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشا . . ووضع بين ايديهم النسخة الموجودة بحوزة حفصة، وامرهم بنسخها، وأن يستعينوا في ضبط القراءة بما حفظه القراء، فأعدوا له ست نسخ احتفظ بواحدة ووزع البقية في الامصار، ومنذ هذا الوقت بدأت النسخ المنقولة من مصحف عثمان في الانتشار، فمما يذكر انه كان منها مع جنود معاوية في وقعة صفين خمسمائة نسخة.

ولابد من التنبيه على أن هذه الحركة حتى في العهود الأولى للبعثة النبوية لم تكن وقفا على تدوين القرآن، بل شملت أيضا المسائل المتعلقة بالدعوة الجديدة، كالمعاهدة التي كتبت بأمر من الرسول ﷺ لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود، والرسائل التي كان يوجهها عليه الصلاة والسلام إلى القبائل والملوك يدعوهم فيها الى الاسلام، يضاف إلى ذلك أن الحديث الشريف الذي قلنا ـ قبلا ـ إنه كان يتناقل رواية ـ غالبا ـ طوال حياة الرسول ﷺ وفترة من الزمن بعده، اتجه بعض الصحابة إلى تدوينه في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه، فمن الذين دونوا الحديث عبد الله بن عمرو بن العاص بترخيص من الرسول ﷺ وأنس بن مالك، سوى أن تدوين الحديث في هذا الوقت المبكر لم يكن يمثل اتجاها عاما ومنظما في حركة التدوين، إذ ظل جل الصحابة يروونه دون أن يكتبوه، وبقي الأمر كذلك طوال عهد الخلفاء الراشدين وزمنا من الحكم الأموي ولم يصبح جمعه وتدوينه حقيقة واقعة إلا في القرن الثاني للهجرة، فقد قام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري (ـ 124) الذي عرف بكثرة محفوظة من الحديث بأول محاولة في هذا المضمار في هذه الحقبة ثم توفر الامام مالك بن أنس(93 ـ 179ه) على جمعه في كتابه (الموطأ) وأقدم على ذلك أيضا عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح (150ه) وعبد الرحمن الأوزاعي (183ه) وسفيان الثوري (161ه) وحماد بن سلمة بن دينار (176ه)، واستمرت عملية تدوين الحديث في تطورها ونموّها حتى اكتملت لها صورتها مع أصحاب المصنفات الكبرى التي ظهرت في القرن الثالث.

وعرفت حركة التدوين في مضمار العلوم الاسلامية اتساعا باتجاه بعض العلماء الأول إلى الكتابة في التفسير استجابة لحاجة الناس إلى فهم ماغمض عليهم من القرآن الكريم، وكان ظهور هذه الحاجة في الواقع منذ وقت مبكر، فمما يروى في هذا المجال أن الصحابة كانوا يسألون الرسول ﷺ عن معاني بعض ألفاظ القرآن وعن تأويل بعض آياته، لكن شيئا من ذلك لم يدون يومئذ، وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، اتخذ الناس من الصحابة

مرجعا في فهم ما استغلق عليهم من معانيه وآيه، فجلس للتفسير علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب وسواهم، غير أن المسألة لم تتوقف عند هذا الحد، بل اتجه بعض الصحابة والتابعين إلى الكتابة في هذا الصنف من علوم الدين، فدون فيه عبد الله بن عباس (ـ 68ه) كثيرا لاسيما في غريب القرآن وفي أسباب النزول، وفي طبقات ابن سعد إشارة مهمة إلى ما تركه هذا الصحابي من كتب في هذا الميدان، فقد روي أن رجلا يسمى (كريبا) ترك عند موسى بن عقبة حمل بعير من كتب ابن عباس، فليس ببعيد أن تتضمن هذه المجموعة كتبا لابن عباس لها علاقة بالتفسير خاصة وأنه عرف له كتاب في التفسير رواه عنه مجاهد وعكرمة الذي روي عنه أيضا كتابه في نزول القرآن، كما روى عنه الكلبي كتابه في أحكام القرآن.

وكتب في التفسير من التابعين عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وغيرهما، وقد استمرت حركة الكتابة في التفسير بعد هؤلاء في نمو مطرد، حتى انتهت إلى وضع مؤلفات ضخمة فيه بدءا من أواخير القرن الثاني، كمعاني القرآن للفراء (207ه)، و «جامع البيان في تفسير القرآن» لمحمد بن جرير الطبري (224 ـ 310ه)، ويذكر الدارسون أن تفسير القرآن استتبع لونا آخر من التأليف ارتبط به منذ وقت مبكر، وهو الكتابة في المغازي والسير، ذلك لأن القرآن الكريم تضمن إشارات إلى أشخاص وأحداث كثيرة كما تضمن سيرة الرسول (صلعم) وآخباره، وغزواته، وكل ذلك يتطلب من المفسر أن يفصل الحديث فيه، وقد ظهر في هذا الميدان عروة بن الزبير الذي يعد أول من صنف في المغازي، وألف في المغازي من معاصريه أبان بن عثمان بن عفان (ـ 105هـ)، ووهب بن منبه وعاصم بن عمر وابن شهاب الزهري (ـ 124هـ) وغيرهم.

على هذه الصورة يتبين لنا بما لا يدع مجالا للشك أن حركة تدوين القرآن وما اتصل به من علوم قد انطلقت منذ عهد الرسول ﷺ وصحابته، وأن الرواية الشفوية لم تكن الأداة الوحيدة التي اعتمد عليها المسلمون في حفظ آثارهم.

سوى أن هذه الحركة التي يذهب بعض الدارسين ـ كما أشرنا ـ إلى أن تدوين القرآن الكريم بعد جمعه كان يمثل الانطلاقة الحقيقية لها في الصدر الأول، لم تقتصر الجهود فيها عل جمع علوم الدين وتدوينها والتأليف فيها، إنما وجهت الجهود أيضا إلى تدوين التراث الأدبي، لأن التصنيف في علوم الدين نفسها كثيرا ما استدعى الرجوع إلى المادة الأدبية، وإلى أخبار الجاهليين وأنسابهم، لذلك نلاحظ أن الذين اهتموا بالتدوين في الموضوعات الاسلامية يتوفرون غالبا على ثقافة أدبية واسعة كانوا يسترفدون بها في مجال إهتماماتهم . قال الدكتور ناصر الدين الأسد :((وقد كان كتاب السيرة والمغازي ـ في الصدر الأول ـ يحفظون كثيرا من الشعر الجاهلي و يستخدمونه في الاستشهاد على ما يكتبون أو

يتحدثون. . . . و كذلك كان المفسرون يعتمدون على الشعر الجاهلي و كلام العرب في تفسير ألفاظ القرآن الكريم و فهم معانيه)) (29).

غير أن تدوين التراث الأدبي و ما اتصل بحياة العرب من أخبار و أيام و أنساب، و سواها لم يقتصر على ما كان يرد في بطون ما صنف في الموضوعات الاسلامية، و انما أفرد هوالآخر بعناية خاصةو الأخبار التي بين أيدينا عن جمع هذا التراث و تدوينه في العصر الاسلامي تبين أن حركة التدوين في هذا الميدان بدأت هي الأخرى بسيطة لا تعدو أحيانا تقييد بعض الشعر و بعض الأخبار وما إلى ذلك، ثم أخذت دائرتها في الاتساع، فما أن نصل إلى القرن الثاني للهجرة حتى نرى هذه الحركة تنشط نشاطا لم تعهده من قبل، فمنذ أوائل هذا القرن أخذت تظهر مدونات تاريخية للقبائل، فقد روى عن ثعلب ((أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العـرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وأنه طلب لذلك من حماد وجناد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ثم رد إليهما ما أخذه منهما)) (30).

وقد قام على رأس حركة التدوين في هذه الحقبة علماء عرفوا بصبرهم الشديد على جمع التراث وتدوينه كأبي عمرو ابن العلاء(ـ 154ه) الذي كانت عامة أخباره من عرب أدركوا الجاهلية كما يذكر الجاحظ في البيان والتبيين، وكان حرصه شديدا على تدوين مروياته هذه حتى قيل إن ما كتبه ملأ بيتا له إلى قريب من الشقف.

أماحماد الراوية (ـ 156ه) الذي كان متهما بالوضع والانتحال، فعلى الرغم من غلبة الرواية عليه، فإنه لم يدر ظهره للتدوين وهو ما نفهمه من قول ابن سلام الجمحي ((وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية)) (31).

وليس غريبا في الحقيقة أن يدون حماد بعض مروياته، بل الغريب ألا يكتب شيئا منها في عصر تشهد الأخبار التي وصلتنا عنه أن الكتابة اتسعت فيه اتساعا كبيرا عما كانت عليه في العهود السابقة.

وممن شاركوا في حركة التدوين في هذه الفترة المفضل الضبي (ـ 168 أو 178ه) الذي يعد من جيل الرواة العلماء الأوائل، وعرف بسعة علمه بأخبار العرب وأيامها ولغاتها وأشعارها، وقد جاء في إنباه الرواة أنه كان للمفضل كتب صنفها تتضمن أخبارا وأشعارا، ومن مؤلفاته التي وصلتنا المفضليات. لكن الدكتور الشوقي ضيف يذهب إلى أن المفضل لم يكتب هذه القصائد بنفسه، إنما أنشدها على تلاميذه فحملوها عنه، غير أن الدكتور ضيف لا يسند رأيه هذا بأي دليل (32)، ونحن لا نستبعد أن يقوم المفضل بجمع هذه القصائد

في صحائف خاصة اذا وضعنا في حسابنا أن الغاية من جمعها كانت محددة وواضحة لديه، فقد جمع هذه القصائد، كما هو معروف ، للمهدي حين انتدبه الخليفة أبو جعفر المنصور لتعليمه وتثقيفه بالشعر القديم . لكن على أي حال ومهما كان وجه الحق في هذه المسألة، فإن ذلك لاينفي جهد المفضل في حركة الجمع والتدوين، فقد ذكرت له مصنفات أخرى غير المفضليات مثل كتاب (الأمثال) وهو مطبوع، ونسبت إليه كتب أخرى مثل (معاني الشعر) وكتاب(الألفاظ) و(العروض).

وقد أعقب هذا الجيل من علماء القرن الثاني، جيل آخر تتلمذ لهم وجمع مثلهم بين الرواية والتدوين، لكنه خطا خطوة منهجية أخرى في جمع التراث ووضع المصنفات فيه، فإليهم كما يقول الدكتور شوقي ضيف يرجع الفضل «في تدوين الشعر الجاهلي تدويناً منهجياً قائماً على التوثيق والتجريح» (33). ومن علماء هذا الجيل أبو سعيد الأصمعي (112 ـ 216ه) الذي كان كثير الرحلة إلى البادية لجمع الأخبار واللغة والأشعار غير أن جهده لم يقتصر على الرواية والتجميع إنما جاوز ذلك إلى التصنيف، فقد ذكر له ابن النديم في الفهرست سبعة وأربعين كتاباً في موضوعات متنوعة، منها مايتصل باللغة وعلومها وبالأدب، ومنها من يتصل بالانسان، والحيوان، والنبات، وبمظاهر الطبيعة المختلفة، وقد طبع من هذه الكتب، كتاب خلق الانسان، كتاب الابل، كتاب الخيل، كتاب الشاء، كتاب الوحوش، كتاب النبات، كتاب النخيل، والكروم، كتاب الدارات، كتاب الأضداد، كتاب القلب، والابدال، كتاب فحولة الشعراء، وكتاب الأصمعيات الذي سار فيه على نهج صاحب المفضليات في الاهتمام بالشعر الجاهلي والمخضرم والاسلامي، وإن لم تبلغ مجموعة الأصمعي هذه شهرة المفضليات.

ونجد صورة أخرى لهذا التطور الذي عرفه التدوين والتأليف في القرن الثاني عند هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ـ 204ه) أيضا، فما وضعه من كتب في موضوعات مختلفة يزيد على المائة والخمسين كتابا، حسبما جاء في الفهرست، ويمكن أن نذكر من مصنفاته هذه كتاب الأصنام، وكتاب نسب الخيل، وكتاب جمهرة الأنساب، وكتاب أخبار بكر وتغلب، وغيرها كثير مما تمكن العودة إليه في الفهرست وفي وفيات الأعيان.

وقد بدأت تظهر منذ هذا الوقت جهود الأعاجم ومشاركتهم في تدوين التراث والتصنيف فيه، ونكتفي في هذا المقام بذكر أبي عبيدة معمر بن المثني(110 ـ 209) الذي عرف بشعوبيته وتعصبه على العرب والطعن في أنسابهم، وعن إسهامه في حركة التدوين والتأليف يذكر إبن خلكان أنه خلف مائتي كتاب، أما ابن النديم في الفهرست فيعد له مائة وثلاثة كتب.

إنه ليطول بنا الحديث لو أردنا أن نستقصي استقصاء مفصلا كل أخبار حركة التدوين والتأليف التي عرفت تطوراًكبيراً في القرن الثاني الهجري، سواء من حيث كثرة ماجمع ودون في هذه الفترة، أم من حيث تنوع موضوعات الكتابة واتجاهها نحو التأليف المنهجي الذي سيتبلور في القرن الثالث الهجري الذي يمثل بحق عصر ازدهار التأليف المنهجي، ففيه ظهـرت كثير من الكتب التي تحمل هذه الصفة مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والشعر والشعراء، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ الذي بنى منهجه في التأليف على الاستطراد والخروج من موضوع إلى موضوع بقصد الترويح على نفس قارئه، وطرد الملل عنها، إلى مؤلفات كثيرةٌظهرت في هذا العصر، يضيق المجال عن حصرها.

غير أنـه ينبغي أن نذكر بأن هذا الاتساع الذي عرفته حركة التدوين والتأليف في القرنين الثاني والثالث لايحمل أية دلالة على انقطاع الرواية الشفوية إنقطاعا كليا، فمازلنا إلى القرن الثالث نسمع علماء يؤكدون أهمية الرّواية الشّفوية في التوثيق و تأسيسا على ذلك يمكن أن نقول مع الدكتور عز الدين إسماعيل : إن حركة التدوين و التأليف ظلت ((الى نهاية القرن الثالث الهجري مصاحبة للرواية الشفوية، ولا شك في أن الاعتماد على الرّواية في بادىء الأمر كان أكثر ثم نشطت حركة التدوين حتى صارت معادلة للرواية وهي المرحلة التى برزت فيها ظاهرة السّماع ثم غلب التدوين في المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التى كانت فيها المعارف والعلوم العربية قد تأصلت وإتسع نطاقها ونشط التأليف فيها)) (35).

الهوامش

1 ـ مصادر التراث العربي د/عمر الدقاق ص : 7
2 ـ تاريخ الأدب العربي رجيس بلاشير 1/120
3 ـ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية د/ناصر الدين الأسد
4 ـ شرح ديوان طرفة ص : 78
5 ـ المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي د/عز الدين اسماعيل
6 ـ شرح المعلقات السّبع : 153
7 ـ ديوان الأعشى : 89
8 ـ المفضليات للمفضل الضبي ص : 25
9 ـ المفضليات : 25
10 ـ الحيوان للجاحظ 1/70
11 ـ مصادر الشعر الجاهلي د/ناصر الدين الأسد ص : 89
12 ـ ديوان امرىء القيس ص : 120
13 ـ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني 6/127

14 ـ راجع مثلا معلقة لبيد وديوان زهير
15 ـ راجع ما كتبه الدكتور ناصر الدين الأسد عن هذا الموضوع في كتابه مصادر الشعر الجاهلي ص : 84، 85
16 ـ تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د/شوقي ضيف : 140
17 ـ تاريخ الأدب العربي بلاشير 1/120
18 ـ تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د/شوقي ضيف 141، 142
19، 20 ـ المفضليات 62، 100
21 ـ الأغاني 8/91 لأبي الفرج الأصبهاني
22 ـ العمدة لابن رشيق 1/108
23 ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص : 161
24 ـ طبقات ابن سعد 1/198
25 ـ البداية و النهاية لابن الأثير 9/101
26 ـ الاتقان للسيوطي 1/148، 149
27 ـ تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د/شوقي ضيف ص : 88
28 ـ مناهج التأليف عند العلماء العرب د/مصطفى الشكعة ص : 38
29 ـ مصادر الشعر الجاهلي د/ناصر الدين الأسد ص : 151
30 ـ الفهرست لابن النديم ص : 134
31 ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي 1/48
32، 33 ـ تاريخ الأدب العربي د/شوقي ضيف ص : 160
34 ـ راجع طبقات فحول الشعراء 1/4
35 ـ المصادر الأدبية واللغوية د/عز الدين اسماعيل ص : 49